# تاريخ ما بين السطور

رمضان مصطفى سليمان

**أين دون سيباستيان؟**

البرازيل بلد التناقضات ، ما بين الغنى الفاحش ، الفقر المدقع .

الجهلُ والكفرُ وجهان لعملةٍ واحدة... متلازمان لا يفترقان. والمفارقة المُرّة أن حملة الجهل والضلالة هذه، يتزعمها رجالُ الدين أنفسهم! و يصدقها أهالي القرى التي تعاني مر المعانة من الجوع و الجفاف .

آه، ما أروع البرازيل!

بلادٌ تشقها الأنهار، وتحتضنها الوديان الخضراء الممتدة حتى الأفق، تسرّ الناظرين، وتبهج القلب، وتبعث في النفس راحة وسكينة.

جبالٌ شاهقة تتباين في الطول والشكل و اللون، تحرس الأرض بصمت مهيب.

بلادٌ لا تُعرف فقط بجمالها الطبيعي، بل بمواهبها الفريدة؛ بلاد كرة القدم التي تتسابق أندية العالم لشراء لاعبيها أصحاب القمصان الصفراء، بملايين الدولارات ...بلادُ الرقص، والمهرجانات، ومباهج الحياة التي انتشرت كالعطر في هواء العالم.

تعالَ معي نزورها... نغوص في أعماقها... وننصت إلى إحدى أساطيرها، قصة خرافية ممتعة، وكأنها نشيدٌ يدعو إلى ثورةٍ لا تنتهي.و قد لا تنتهي.

كثيرون ارتدوا القميص الأصفر، وتألقوا في ملاعب البرازيل و في ملاعب أوروبا...

لكن صديقنا هذا، رغم أنه ارتداه أيضًا، لم يكن لاعب كرة .عاش في البرازيل، نعم، لكنه اختفى فجأة. لا أحد يعرف كيف أو لماذا ...اختفى، تاركًا خلفه أسطورةً يتناقلها العامة باسم الدين.

**اختفى... أين؟ لا أحد يعلم.**

وهنا تبدأ حكايتنا...

نحن ألآن في عام 1837 .في الشمال الغربي من البرازيل... قرية منسية ، نسيها التاريخ ، بل نستها الدولة ، قرية ينهشها الفقر والجوع والخرافة والجريمة.

الغراب ينعق على الأشجار بصوته المزعج ، و هو أيضا شريكًا لأهلها في بؤسهم و فقرهم و جوعهم .

والأرض الجافة تتشقق تحت أقدامهم ; ..لا ماء، لا أنهار، لا مطر...

قريةٌ تعيش على هامش الحياة، إن جاز التعبير. قريةٌ تعيش على هامش الحكومة .

الناس، كالأشباح، تجمعوا: شيوخ، رجال، نساء، وأطفال. وجوههم السمراء تحمل كل أمراض سوء التغذية، يتقدمهم قسٌّ بثيابٍ بالية، وجهه الحزين يعلوه الشحوب، عيناه تحدّقان في السماء ...يرفع يديه إلى الأعلى، وصوته يرتجف:

"أيها الرب الكريم... لماذا هجرتنا؟ لماذا نسيتنا ؟ لماذا سلطت علينا الجفاف؟ لماذا تُفني مواشينا، وتُهلك زرعنا؟ صغارُنا يموتون من الجوع، وشيوخُنا من العطش .ماذا اقترفنا حتى تتركنا للموت البطيء؟ لقد آمنا برسولك المقدّس... دون سيباستيان، ذاك الذي أرسلته ممثلًا لك على أرضنا، في قريتنا المعذبة الشقية .

أعده إلينا، يا رب، أعده !جفّت الأرض، وتشققت من الظمأ .جفّت ضروع الماشية.

الثعابين و العقارب و الحشرات خرجت من جحورها، تزحف نحو البيوت بحثًا عن غذاء وقد الغذاء ...فلا تجد سوى أجسادنا الهزيلة.

أعد إلينا دون سيباستيان، رسولك المبجّل، ليرفع عنا هذا البلاء الذي أهلك الزرع والنسل .أعده إلينا، لتُروى الأرض بمائك الطاهر .لينبت الزرع، ويمتلئ الضرع بالحليب. لتعود البهجة

إلى الحقول والأكواخ .أعده إلينا، ليهطل المطر... ويبعث الحياة من جديد".

❖

**معذرةً، لكن حديث القس ينضح بالكفر المبين الصريح والإلحاد الواضح.**

لماذا لا يلجأ إلى الله مباشرةً؟

الله، باعث الحياة، باعث البشر، بل باعث **"دون سباستيان** "الذي يدّعي القس أنه رسول!

أبواب الله مفتوحة دومًا، تستجيب لكل دعاء، لا تحتاج إلى وساطة ولا شفاعة مشعوذ.

**لكن أين هو "دون سباستيان" هذا؟**

أين صاحب "القميص الوطني" الذي تتحدث عنه القصة؟

كان الناس يرفعون صورة باهتة خلف القس، مثبتة على أعواد الحطب اليابسة.

لعل هذه الصورة تمثل "دون سباستيان"، ولكن... لا ملامح واضحة فيها، لا شيء يدل عليه، مجرد طيف باهت... كأمل زائف يُرفع على أعواد نار قادمة.

❖

**وفي جنبات الطريق،** كان يجلس على الأرض: رجال، ونساء، وأطفال .أمامهم أقفاص صغيرة، يبيعون فيها ما تيسّر لهم من خضروات، أو تين شوكي، أو موز...

لكن قلّ من يشتري. لقد ضاقت ذات اليد.

وبين الجالسين، لفتت نظرنا **عجوز تبيع التين الشوكي.** كانت تساوم المارة بصوت مرتعش:

"خذ تينة، وادفع ما معك".

لكن لا أحد يجيب. الكل يمرّ دون اكتراث. وقليلون، من فرط الجوع، يقفون ليأكلوا.

سألناها عن **الدون سيباستيان** .رفعت يدها النحيلة وأشارت نحونا قائلة:

"اذهبوا إلى سينا. إنها تعرف كل شيء عنه".

كانت "سينا" في قرية تُدعى **كابسانكا**، قرية لا تختلف كثيرًا عن الأولى،غير أن أهلها استخرجوا الماء من جوف الأرض بطلمبات بدائية،وإن كان الماء شحيحًا، لا يكفي للبيوت، ولا الزراعة، ولا للمواشي الهزيلة.

عرفنا أن "سينا" كانت خادمة لدى **السنيور مونيز**، أحد أغنياء القرية القلائل .لكنها لم تكن حرة الآن... كانت محتجزة في **مركز الشرطة**، قيد التحقيق، في تهمةٍ صدمت الجميع:

**لقد قتلت السنيورة إيميليا، زوجة السنيور مونيز.**

تساءل الناس بدهشة:

"لماذا؟! لماذا فعلت ذلك؟"!

احتُجزت "سينا" بعيدًا عن العيون، بينما جلس السنيور مونيز في زاوية من المركز، رأسه بين كفيه، يغرق في وجعه المؤلم .

قال بصوت متهدّج للشرطي الغبي :

" قتلت زوجتي الحبيبة... ولا أعلم لماذا.كانت تعطف زوجتي تعطف عليها ، على أهلها .تمنحها الملابس، وتطعم أسرتها الجائعة .كانت تعاملها كابنتها تمامًا".

ثم تابع، وعيناه تدمعان، و صوت يترنح من البكاء:

"لقد طعنتها... طعنة بعد أخرى .لم تتوقف حتى لفظت أنفاسها الأخيرة .ومع كل طعنة، كانت تصرخ وتضحك ضحكة شيطانية:

'باسم النبي المبجل دون سيباستيان، بدمك أطهّر الأرض، وأبعث الحياة، بدمك أحرّر الدون سيباستيان من أسره'"!

❖

ظهرت على سينا، خادمتنا، علامات الخبل منذ ما يقرب من عامين. كانت تتغير شيئًا فشيئًا، إلى أن بات عقلها ولسانها لا يرددان سوى اسم واحد" :الدون سبياستيان... النبي المبجل ، المخلص البشرية من المسلمين ".

قال السنيور مونيز، بصوت متهدج يغلبه الحزن:

كنا نعاملها كابنتنا، نرأف بها ونرحمها. بل إن زوجتي، إيميليا، من فرط عطفها عليها، أقنعتني بأن تجلس معنا إلى مائدة الطعام ، كواحدة من الأسرة.

وكانت سينا تأخذ نصيبها من الطعام، ثم تنزوي في ركن الغرفة مع قطتها السوداء المدللة. تجلس هناك، تطعمها وتهمس لها، ثم ترفع صوتها قائلة:

"كلي، أيتها القطة المسكينة... حين يعود النبي، الدون سبياستيان، سيطعمنا من الجنة، لا من هذا الطعام الذي يقدمه لنا هؤلاء البشر".

–كنا نضحك من كلامها، فليس فينا من يؤمن بخرافة عودة "الدون سبياستيان". وإذا ما قلنا لها ذلك، انكمشت في الزاوية وأجهشت بالبكاء، تردد بحرقة:

"سوف تعرفون... قريبًا، ستعلمون".

وفي يوم، سمعت إيميليا زوجتي سينا وهي تحدّث جارتنا عن تلك الأسطورة، تقول في نبرة نبوءة غاضبة:

"آمنوا بـالدون سبياستيان، المسيح القادم ، المسيح المبجل ، المسيح المخلص ... آمنوا قبل أن يحلّ عليكم غضبه ونقمته"!

ثم روت لي زوجتي إيميليا شيئًا جعل الدم يتجمد في عروقي. كانت سينا، المؤمنة بالخرافات، تهمس لها ذات ليلة:

"لقد زارني الدون سبياستيان أمس في غرفتي ، وأنا في فراشي. تزوجني بكلمة المسيح... إنني أحمل في بطني ولده. لقد غيّر اسمي، وسمّاني مريم سينا".

قالت لها زوجتي بذعر :

–سينا، لا تقولي هذا... إن سمعك أحد سيظن أنك اقترفت الفاحشة مع غريب.

لكن سينا لم تكن تأبه. كانت دائمًا تسترق السمع لأحاديثنا، سواء في صالة الطعام أو حتى في غرفة النوم. بدأت إيميليا تخشى أن تكون قد تعرّضت لاغتصاب... بل إنها خافت أن يُلقى باللوم عليّ.

طلبت مني أن أبلغ الشرطة، والكنيسة أيضًا. خافت من أن تتعقد الأمور... أن تُتهم هي، أو أُتهم أنا.

ركضت إلى مركز الشرطة... لكن ما لم يكن في الحسبان وقع قبل أن أفتح فمي.

جاء بعض الجيران وهم يصرخون: حادث!

قالت لي سيدة من الجيران، بصوت منهار:

"لقد قتلت سينا زوجتك... إيميليا".

❖

**لقد أصيب أهل قرية كابسكاني بالخبل.** إنهم لا يملّون من ترداد أسطورة "الدون سبياستيان"، ذاك المنقذ المزعوم الذي سيأتي، ذات يوم، لينتشلهم من بؤس الحياة وسُخامها. قرية تغرق في ظلام الجهل، وتُؤمن بخرافات ما بعدها خرافات.

والأغرب من ذلك أن الرهبان والقساوسة هم من يمسكون بزمام العقول. لا يعظون بدينٍ قويم، بل يسحرون القلوب ويستخفّون العقول بما ينسجونه من خيالات وأساطير.

والسبب؟

أن تسعةً وتسعين في المائة من سكان هذه القرية أميّون. لم يرتادوا المدارس ، و أين هي المدارس، ولا حتى مذياعٌ واحد يُحدّثهم أو يُنير لهم الطريق. وحتى أولئك الرهبان والقساوسة لا يُجيدون قراءة الإنجيل! بل يفسّرونه على هواهم، ويخلطون بينه وبين الموروثات والأساطير، فيتقبلها الناس كما هي، دون جدال، ودون تفكير.

لهذا السبب، لم يعد المتعلّمون والأثرياء من أبناء القرية يرتادون الكنيسة، فقد ضاقت عقولهم بتلك الخرافات التي يُراد لها أن تُقدّس.

والأعجب أن هذه الأساطير ليست بلا جذور .فثمة حكاية قديمة عن النبي يوحنا – وهو ذاته النبي يحيى – ذاك النبي العفيف الشريف، الذي تمسّك بالتوراة وشرائعها، ودعا الناس إلى الصلاح والتقوى.

لكن التاريخ يروي أن سالومي، اليهودية الفاجرة، أغرت الملك هيرودس، فاشترطت رأس النبي ثمناً لليلة آثمة معها! صحيح أن القصة مشهورة، وإن كانت بلا سند تاريخي موثوق، لكنها تُروى كجزء من الصراع المحتدم آنذاك بين اليهودية والمسيحية، عندما بدأ نفوذ اليهودية في التراجع بالشام.

أما الرهبان اليوم، فيزيدون على القصة ما يشاؤون. يزعمون أن رأس يوحنا سيظهر للمؤمنين الصالحين في ليلة توافق مصرعه في الشام.

بل يذهبون أبعد من ذلك، فيبيعون كل صباح "قطرات من الدم الساخن"، ويدّعون أنها دم يوحنا الطاهر !لكن الحقيقة أن هذا "الدم المقدس" ليس إلا دم عنزة تُذبح في المعبد! يأكلون لحمها الشهي، ويبيعون دمها للناس، كل قطرة بوزنها ذهبًا!

يقولون للنساء:

"قطرة واحدة تُمزج بالشراب تُنجب لكِ طفلًا بعد عقم"! "وإذا لحستِها، فإن الذي تلدين يكون ذكرا كما يشتهي زوجك"! ويُصدّق الأهالي، فيبيعون ما يملكون، أملاً في تحقيق أمانيهم.

بل وحتى زوجات الأثرياء، القادمات من المدن البعيدة، يُقبلن على شراء هذا "الدم"، وهنّ يعلّقن آمالهنّ في الحمل والإنجاب!

أما أسطورة "الدون سبياستيان" فقد انتشرت مع البرتغاليين الذين استعمروا البرازيل عام 1510، ونشروها عن ملكهم "الدون سبياستيان."

والمفارقة العجيبة؟

أن الملك نفسه... لم تطأ قدماه أرض البرازيل قط!

❖

أقبلت امرأة بثيابٍ رثّة، وشعرٍ كثيف متسخ يتدلى على كتفيها كستارٍ من الجنون .كانت عيناها زائغتين، وصوتها مبحوحًا، تتشنج وهي تصرخ:

**–أسرِعوا... لقد عثروا على سِينا!**

ثم أردفت، بكلماتٍ مخنوقة، تائهة بين الهذيان واليقين:

وجدوها... على جوادٍ أبيض من نور، لا تلمس حوافره الأرض! يحملها نحو قرية ريسيف المجاورة...

ساد صمتٌ مشحون، ثم ما لبث أن انقلب إلى ضجيجٍ متحمّس، حين هتف الناس من حولها:

هيا! هيا بنا! لنشهد هذا المشهد العجيب الذي لا يتكرّر!

واندفع أهل القرية يهرولون خلف المرأة المجنونة، تتعالى أصواتهم، ويتسابقون وكأنهم على موعدٍ مع معجزة.

# النبي الأسير

انطلقت سنيا تعدو كالمجنونة في الطرقات ، وخلفها جموع أهل القرية بأكملهم: رجال ونساء وأطفال، بل حتى بعض رجال الشرطة هرعوا خلفها، يتزاحمون على أمل الظفر برؤية النبي المنقذ، "الدون سبياستيان"، الذي طالما انتظروه كمخلّص من المجاعة الطاحنة التي كانت تحصد الأرواح يومًا بعد يوم، وتحيل الحياة إلى جحيم من الفقر والموت البطيء.

رأى الأهالي سنيا تمتطي جوادًا أبيض من نور، مشعًا بجناحين ، قوائمه لا تمس الأرض، يحلق بها في اتجاه قرية "ريْسيف" المجاورة. منظرٌ لم تألفه أعينهم من قبل، فتعلقت به قلوبهم كالغرقى يتعلقون بقشة. لم يكن الطريق سهلاً، بل كان محفوفًا بالمخاطر، ممتدًا وسط صحراء قاحلة زحفت فيها الأفاعي السامة تبحث عن فريسة في هذا الجفاف المهلك الذي لم يُبقِ زرعًا ولا ضرعًا.

وقفت سنيا على صخرة عالية، وصرخت بجنونها الطقوسي الذي اكتسبته من صديقها القس الجاهل، وقد تعلمت على يديه بعض الشعوذات والهلوسات الدينية، وقالت بصوت متهدج يخترق السكون:

أيها الناس! اتبعوني... اتبعوني!

نظر الناس إليها باندهاش و عيونهم تحملق في الأفق البعيد ، وفي أصوات متشابكة يملؤها الشك والريبة من قلها ، سألوها:

إلى أين يا سنيا؟ إلى أين تقودينا؟

أجابتهم بحماسة لاهبة، وعيناها تلمعان بنار من التصديق الأعمى:

إلى الخلاص! إلى حيث سنحرر النبي "الدون سبياستيان" من قيود الأسر والظلم!

ساد بين الجموع همس مبهوت، ارتفع شيئًا فشيئًا حتى أصبح كالرعد:

أَسْر؟!

صرخت سنيا في غضب ناري وقد استبد بها الانفعال و الغضب :

من قال إن النبي "الدون سبياستيان" أسير؟ ألم أخبركم أنه جاءني ذات ليلة، وتزوجني باسم المسيح؟ ألم يساعدني على الفرار بجواده الملائكي؟

ثم فجأة خنقها البكاء، وانهارت تقول:

لكن السحر أعاده إلى سجنه... نعم، لقد أُسر من جديد بفعل الظلم والسحر الأسود!

صاح الناس من كل جانب:

سحر؟! من هذا الذي يجرؤ على سجن "الدون سبياستيان"؟ وأين سجنه؟!

صرخت سنيا بصوت تملؤه الهستيريا:

اتبعوني إلى الصخرة!

نظر الناس بعضهم إلى بعض في حيرة و شك و اندهاش، وقالوا في صوت واحد:

صخرة؟ أي صخرة يا سنيا؟

قالت في إيمان مطلق لا يعرف شكًّا:

صخرة النبي، صخرة المسيح، صخرة المخلّص العظيم... هيا، اتبعوني!

وسارت الجموع خلفها، كأنما سُحرت عيونهم ، وقد عميت أبصارهم وبصيرتهم، كما عميت قلوبهم وعقولهم، لا يرون غير سراب الخلاص البعيد ، يلوح لهم في أفق الجنون المطلق .

كان مجرد انتشار شائعة عن ظهور "الدون سبياستيان" كافيًا لأن يستنفر أهل القرية، بل وأهل القرى المجاورة، ممن مزقهم الفقر، وعضّهم الجوع، وكسرتهم الجهالة. انطلقوا كالجراد المنتشر، النساء يحملن أطفالهن الرضع، والشباب يسندون أمهاتهم الطاعنات في السن، في مشهد مهيب عجيب يشبه مواكب الأساطير، حتى وصلوا إلى "ريْسيف"، تلك القرية المطلة على المحيط الأطلسي، قرية قد عضها الجوع كجميع القرى .

ورغم الجوع والإعياء، لم يشعر أحد منهم بالتعب؛ فقد أمدهم الهوس الديني بقوة غامضة لم يعهدوها في أجسادهم المتهالكة.

وعند منطقة صخرية جنوب القرية، توقفت سنيا فجأة، ثم صرخت وهي تمزق شعرها بهستيريا مفزعة:

من هذه الصخرة سيخرج "الدون سبياستيان!"

في ذهول، صاح الناس:

سنيا! كيف يعيش الملك في صخرة؟!

وقال بعضهم:

ألم تقولي إنه جاءك، وأخذك بيده من السجن؟

وقال آخرون:

كيف نجا من سجن الصخرة؟ كيف لبث فيها قرونًا ثم خرج؟

فصاحت سنيا بجنون مطلق كعادتها وقد غلبها خيال الوهم:

أعداؤه... المسلمون! نعم، الخليفة عبد الملك أرسل عليه السحرة المسلمين، سجنوه بهذه الصخرة بسحرهم الأسود.

ثم أخذت ترقص بجنون كمن أصابته الأرواح، تصيح بصوت غريب كأنما تتحدث بلسان غيرها:

" الدون سبياستيان" يقول لكم: هذه الصخرة الجميلة هي سجني... أخرجوني منها!

والمثير أن الناس، كبيرهم قبل صغيرهم، صدّقوا سنيا المخبولة، المهووسة، التي تكاد تمزق ثيابها من الانفعال، يرقصون معها، ويبكون معها، وهم يرون في أوهامها بصيص أمل، ويؤمنون بما لا يُعقل، وقد أعماهم الجوع، والمرض، واليأس، حتى صار الجنون دينًا مقدس، والخرافة نبوءة.

# تاريخ الدون سبياستيان

**في قرية "كابسانكا"**، كان هناك رجل وقور، لم تهتز له شعرة من ذاك الهوس المخبول الذي اجتاح العقول وأصاب الناس بالجنون. قال بابتسامة هادئة تتقاطع فيها الحكمة والمرارة:

"هذا الهوس الذي أثاره القس المشعوذ، ثم زادته جنونًا الخادمة المخبولة سِنيا، كاد أن يشعل فتنة دينية، فتنة بين القلة المسلمة في القرى، وبين الأغلبية المسيحية التي يطبعها الجهل".

ثم تابع حديثه بصوت خفيض يقطر أسى:

"كان الدون سيباستيان ملكًا على البرتغال سنة 1570. وقبل أن يعتلي العرش، لم يكن سوى فارس بسيط، يقاتل ضمن القوات التي كانت ترسلها البرتغال إلى شمال إفريقيا، بعد أن طُهّرت الأندلس من المسلمين".

"اشترك سيباستيان في مؤامرة ضد ملك البرتغال، فانتزع منه الملك بمساعدة أنصاره، وتوّج نفسه حاكمًا. كان متعصبًا كاثوليكيًا حتى النخاع، يمقت الإسلام والمسلمين ، بل يمقت الأرثوذكس المسيحيين ، وقد نال بذلك رضا البابا غريغوريوس الثامن، الذي كان يشاركه الكراهية ذاتها. أمده البابا بالمال والجنود، وساعده في تحقيق طموحاته".

سكت الرجل برهة، ونظر في الأفق نظرة حزينة، نظر و كأنه يسترجع ما قال التاريخ عن ذل الملك الآفاق ، كأنما يستحضر ذكرى بعيدة، ثم أردف:

"كان سيباستيان متهورًا، مغرورًا، وقد بلغ به الغرور حد الوهم، حتى بات يظن نفسه مرسلاً إلهيًا. كتب إلى البابا رسالة تقطر حقدًا وكراهية، قال فيها:

يا صاحب القداسة، إنني أحمل إليك البشرى. لقد زارني المخلّص في المنام، وأخبرني أن ساعة القضاء على الإسلام قد أزفت. سأعبر المضيق بجيش المسيح، وأقتحم ممالك المسلمين في شمال إفريقيا. سأقتل خليفتهم عبد الملك، وأبيد أهله، وأهدم مساجدهم، وأبيع نساءهم وأطفالهم في سوق العبيد. ثم أواصل الزحف إلى الحجاز، فأهدم كعبتهم التي عجز أبرهة عن هدمها، وأنبش قبر نبيهم في يثرب، وأمحو الإسلام من على وجه الأرض. فلتبارك مسيرتي، يا قداسة البابا.

المخلِص: دون سيباستيان، ملك البرتغال".

ابتسم الرجل الوقور ابتسامة حزينة وقال:

"أمدّه البابا بالمال والسلاح، لكن البرتغال، رغم احتلالها للبرازيل، كانت من أفقر دول أوروبا: دولة من الدرجة الثالثة، تفتقر إلى العلم والفن والثقافة، لا أمل لها في اللحاق بموكب الحضارة كما جارتها إسبانيا. فقد كانت شمس الحضارة قد بزغت آنذاك من شبه الجزيرة الإيطالية".

ثم رفع بصره إلى السماء، وقال:

"كان الرجل مصابًا بجنون العظمة، وربما كان يشكو من فصام عقلي، كحال هذا القس المجنون والخادمة سِنيا".

وفي فبراير عام 1578، عبر سيباستيان البحر بجنوده، معتقدًا أن السلطان عبد الملك لن يقاومه. لكن على أرض **سهل وادي المخازن (لارَش(**، سحق السلطان عبد الملك الجيش البرتغالي، رغم دعم ثلاثة قادة فرنسيين كانوا يطمحون في موطئ قدم في شمال إفريقيا.

لم يعرف أحد على وجه اليقين ما إذا كان الملك " دون سيباستيان " قد قُتل أم فرّ. تقول بعض الروايات إنه غرق في نهر تازة، ولا أحد عثر على جثته.

ينقل المؤرخ المغربي **عبد الرحمن السروري**، حاكم تطوان، والذي شارك في المعركة، في كتابه نزهة الإخوان وسلوى الأحزان:

" رأيت الكافر " دون سيباستيان " يفر هائمًا، ومعه نفر من جنوده، لا يدري أين يتجه. ألقى بنفسه في نهر تازة فرارًا من الأسر والقتل، لكنه لم يكن يُحسن السباحة. رأى مصير جيشه أمام عينيه: ما بين قتيل وأسير. فهل غرق؟ لا أحد يعلم. لم يُعثر على جثته".

**وهنا بدأت الخرافة ، بدأت الأسطورة .**

البرتغاليون المعتدلون قالوا إن " الدون سيباستيان " مات ودفن مع من دفن من جنوده، ولم يعرف له قبر. أما المتعصبون، وخصوصًا قساوسة لشبونة، فكانوا كل عام يقيمون احتفالاً دينيًا، يناشدون فيه " الدون سيباستيان " أن يعود ويكمل مهمته "المقدسة."

وقالوا بأساطيرهم:

" لقد عبر النهر على قطعة خشب، وساعده المسيح بلَمسة قدسية، و عبر المحيط ، ففرّ إلى البرازيل".

وتاهت الحقيقة بين الأسطورتين.

هزّ الرجل رأسه بأسى، وقال:

" الناس في هذه القرية المنسية غارقون في الجهالة، تتلاعب بعقولهم خرافات يروّج لها قساوسة ورهبان أكثر جهلًا منهم. وإذا كان سيباستيان قد نجا، فلماذا لم يعد إلى البرتغال؟ لماذا اختار البرازيل؟ لأن البرازيل كانت أغنى مستعمرات البرتغال".

ثم تابع وهو يبتسم بسخرية:

" صدق أو لا تصدق... لا مكان للمنطق في هذه المنطقة من شمال شرق البرازيل. هنا، يعتقد الناس أن " الدون سيباستيان " لم يمت، وأنه سيعود ذات يوم لينشر الخير و العدل والمساواة بين المسيحيين الذين ظلمهم حكامهم ، ويقضي على الإسلام".

وأضاف:

" أسطورة سيباستيان تظهر أحيانًا في البرتغال، لكن الشعب هناك يتعامل معها كأسطورة لا أكثر. أما هنا، فالناس ما زالوا يحلمون بعودته، ويتفاخرون بانتمائهم إلى نسله. فهم جميعًا من أصول برتغالية، لغةً ولونًا وتقاطيع".

ثم قال بأسف:

" الفقر، الجوع، وانعدام الأمل ، اليأس ... هذه أسباب كل خرافة. أتذكر ما قاله السيد مونيز، زوج إيميليا التي قتلتها سِنيا؟ قال إن سِنيا كانت إذا قدموا لها طعامًا لم يعجبها، تأخذه إلى قطتها وتقول:

كلي أيتها القطة المسكينة، حين يعود" دون سيباستيان " سأطعمك طعامًا فاخرًا.

لا ألوم الناس هنا، فالمجاعة تجتاح الأرض، والحكومة غائبة تمامًا عنهم. يكفي أن يظهر من يعدهم بعودة سيباستيان حتى يسيروا خلفه كالقطيع. لقد اشتعلت ثورات عدة بسبب هذه النبوءات الكاذبة، وسقط فيها الآلاف من الأبرياء".

ضحك الرجل الوقور ثم قال:

"كل شيء محتمل، وما علينا إلا أن ننتظر ونراقب. ومن يعش... يرَ".

♥

وفي الجانب الآخر، كانت سِنيا، الخادمة المخبولة، تشير إلى صخرة وتصرخ في هيستيريا:

اخرج إلينا من سجنك يا" دون سيباستيان "! يا زوجي العزيز، كما وعدتنا!

أيها الناس، سيباستيان يقول لكم: ساعدوني لأفك قيودي من سحر عبد الملك، لأعود وأنتقم، وأملأ الدنيا خيرًا وعدلاً ومساواة!

فصاح الفقراء الجهلاء:

سنساعدك يا" دون سيباستيان "!

وصاح القسيس المخبول بجنون:

صف لنا طريق الخلاص! اطلب ما تشاء أيها المخلّص!

فصاحت سِنيا:

المخلّص يقول: الدم هو سبيل الخلاص! اغسلوا صخرتي بالدم الساخن، كي أتحرر من قيودي! دم المسلمين! طهروا الأرض من الإسلام!

وصاحت الجماهير الغاضبة:

هيا نقتل هؤلاء الكفرة الذين استولوا على أرضنا وخيراتنا، وجعلونا نعيش في جوع وبؤس!

## الثورة مستمرة

كانت صرخة "سِنيا" المخبولة الشرارة الأولى، الصيحة المجنونة التي أشعلت نار الثورة في "كانودوس"، تلك البلدة المنسية في شمال شرق البرازيل. لم تكن مجرد صرخة، بل كانت انفجارًا داميًا، عصفت بجدران الصمت، وأطلقت ثورة عنيفة ومخربة، ما لبثت أن امتدت جذوتها خارج البرازيل، إلى سائر أنحاء أمريكا الجنوبية.

كانت الصرخة نداءً غريبًا، خرج من أعماق " صخرة بدرابونيتا " الملطخة بدماء البشر. تلك الصخرة التي زُعم أن النبي المخلّص " دون سبياستيان " سيخرج منها، ليعيد إلى هذا العالم الأمن والسلام والرخاء و العدل و المساواة ، وليمنح البؤساء ابتسامة أمل، ويطرد عنهم شبح الجوع المميت والفقر المدقع.

لقد كان الجوع والفقر الجذر العميق لهذا الانفجار الجنوني، وكانت الصرخة المجنونة شرارة تُغذيها خرافات وأوهام، روج لها قساوسة جهلة ورهبان البراري الغارقون في الأساطير لا الانجيل . فتهافت الأهالي البسطاء، ممن أنهكتهم الحياة، إلى تصديق كل ما يُقال.

على صخرة " بدرابونيتا "، أُريق دم الآلاف من الأبرياء، أكثرهم من الأطفال، فيما ظلت "سِنيا" تصرخ بجنون هسنيري:

" دون سبياستيان لا يطلب منذ البارحة سوى دماء الأطفال! اختاروا من هم بين الثانية والسابعة... هكذا أوحى إلي من بين ذرات الصخرة التي سجنه فيها المسلمون " !

وانتشر الجنون و انتقل حتى بلغ منطقة " إسبرتو "، حيث بدأت مجموعات من أتباع "سِنيا" تصطاد الأطفال، يكمنون في الغابات ليلًا ونهارًا، يقتنصون الصغار، ويحملونهم إلى الصخرة، لتقديمهم قرابين بشعة لذلك النبي المزعوم. ولم يقتصر هذا الكابوس على "كانودوس" و"إسبرتو" فحسب، بل امتد إلى كل المناطق المجاورة التي تعاني من ذات البؤس والجوع.

لا أدري، يا زميلتي، كيف لم تتصدَّ الحكومة المركزية لهذه الطقوس الشيطانية! كيف أغمضت عينيها، وسدّت أذنيها عن هذه المهزلة البشرية المخزية؟

دعونا نسأل ذلك الرجل الوقور، الذي ساعدنا على فك بعض شفرات هذه الصورة المفزعة، عن سر تقاعس الدولة.

قال لنا، بابتسامته الموحية بالصبر:

" دون سبياستيان " " دون سبياستيان "

أجبناه بذهول:

"رأينا ما لم يخطر ببال أحد من البشر ... رأينا البشاعة تتجسد و تتضخم ! أين الحكومة المركزية ؟ ألا تخشى أن يمتد هذا الرعب إلى الجنوب، حيث الكثافة السكانية؟ حينها ستكون الطامّة الكبرى"!

ابتسم الرجل مرة أخرى، وقال بهدوء:

"لقد تحركت الحكومة أخيرًا، ولكن كانت 'سِنيا' قد أعلنت ميلاد ميليشيا جديدة، أسمتها ميليشيا دون سبياستيان، وأعلنت نفسها مستشارة لزوجها النبي المزعوم".

مستشارة نبي؟ أي نبي هذا الذي يختار امرأة مخبولة لتكون ذراعه اليمنى؟

كم من المجانين انضموا إلى ميليشيا المستشارة "سِنيا"، وكم من الهزائم ألحقوها بجيش الحكومة المركزية!

لكن... هناك أمل.

علمنا أن الجنرال "سبيانوس"، رئيس الجمهورية ذاته، يتقدم بجيش ضخم نحو المنطقة.

فهل ستصمد المستشارة المخبولة أمام جيش يقوده رئيس الدولة نفسه؟

وفجأة، قررت "سِنيا" الانسحاب بميليشياتها إلى الشمال، محاولةً الفرار من المواجهة الحاسمة.

لكن الثورة...

**ما زالت مستمرة**

. إذا كانت قد انسحبت ، فإن الأهالي ظلوا صامدين ، و قتل المئات منهم .

## الثورة من جديد

بعد مرور ستين عامًا كاملة، أي في سنة 1898، ظهر مجنون آخر في المنطقة نفسها، منطقة كانودوس. تضاعف الفقر، وتضافرت عليه مصائب الجهل والمرض، وانتشرت الخلافات بين رجال الجيش المرابطين في القرى. والسبب في ذلك هو ظهور حكومة جديدة كل يوم، ورئيس جمهورية يُقتل أو يُشنق كل يوم.

قال المؤرخ الوقور الباسم:

" الفتنة الجديدة تحمل شعار دون سيباستيان أيضًا". وكان الجديد في هذه الدعوة الجديدة هو رجل غريب الأطوار يحمل اسم "أنطونيو" ويحمل لقب "المستشار الكونسبيرو."

سأترك لكم الساحة ليكون محدثكم الصحفي البرازيلي لوسيان كيرن، الذي عاش تلك الأحداث وكتب عنها. كان لوسيان كيرن يعمل في صحيفة "الأخبار" البرتغالية، وكان محبوبًا من الجميع رغم قلمه الساخر. رحب بنا بحرارة، ثم بدأ حديثه قائلاً:

"أهلاً بكم، أخبرني هذا الصديق الكريم أنكم شاهدتم أحداث فتنة سنيا التي جرت منذ حوالي ستين عامًا. لم تكن فتنة سنيا سوى البداية، وبعد اختفاء سنيا الغامض، أصبحت بدورها أسطورة، تمامًا مثل أسطورة دون سبياستيان. أهالي منطقة كانودوس كانوا يعتقدون أن سنيا اختفت لتعيش في صخرة مع دون سبياستيان. ومع تواتر الأزمات السياسية وازدياد نفوذ رجال الدين من قساوسة ورهبان على عقول وقلوب الناس، ظهرت العديد من الشخصيات المماثلة. كل سبع أو ثماني سنوات، كان يظهر شخص جديد يدّعي أنه "سنيا الثانية " أو "سنيا الثالثة " ويدعون الناس إلى تحرير

دون سبياستيان من سجنه في صخرة بدرابونيتا. ليحررهم من الفقر و الجوع .

من سنيا الثانية إلى سنيا الثالثة حتى وصلنا إلى سنيا الحادية عشر هكذا كالملوك في دول أوربا ،

ثم توقف الجنون لمدة سبع سنوات، حتى ظهر المستشار الجديد، هذه المرة هو رجل " أنطونيو كونسليرو" ، كما في المرة السابقة، كان يدعو الناس ويفتتنون به

ويواصل الصحفي لوسيان كيرن الحديث قائلاً:

"إن رجال السياسة ورجال الدين غالبًا ما يخفون الحقيقة عن الناس، ويزعمون أنهم وحدهم القادرون على قيادة الشعب بالنار و الحديد و السجون.

لم ينفذ أحد في البرازيل كلها إلى قلب هذه المشكلة.

بدأت حركة هذا الكونسليرو لتصبح أخطر حركة سياسية شهدتها المنطقة، وقد كلفتني الصحيفة التي أعمل بها أن أذهب إلى منطقة "إسبيرنو"، وهناك قابلت رئيس شرطة قرية ريسيف، تلك القرية التي بدأت منها أول شرارة لظهور سنيا الخادمة.

قال لي رئيس الشرطة:

"هذا الرجل الذي ينادي بما نادت به سنيا من قبل عن عودة " دون سبياستيان " ، هو الآن يقود أخطر فتنة من الفتن التي تلت فتنة سنيا الخادمة.

هذا الرجل، يا أستاذ لوسيان، هو من أسرة منديس، وهي أسرة لها تاريخ طويل من العداء مع أسرة أرجوس. السبب في هذا العداء يعود إلى ثورة سنيا التي حدثت عام 1837. عندما قضى الجنرال سبيانوس على ثورة سنيا، كان يقال إن أسرة أرجوس هي من أرشدت الجنرال على أماكن اختباء سنيا ورجالها، مما مكنه من القضاء على فتنتها".

ويتابع رئيس الشرطة:

" لا تصدق، يا أستاذ لوسيان، هذا الرجل استطاع أن يقضي على العداوة القديمة بين الأسرتين. بل إن أسرة أرجوس كلها الآن تدعمه في حركته. هذا الرجل أخطر من سنيا الخادمة بألف مرة".

ثم تحدث رئيس الشرطة عن ماضي أنطونيو، قائلاً: "كان مجرد عامل في مصنع الملح، ولكنه كان يُعرف بين زملائه بالقراءة المكثفة في اللاهوت، وكان يقضي الليل في دراسة ما كتبته الكنيسة الكاثوليكية البرتغالية عن أسطورة دون سبياستيان واختفائه في مراكش. كان يطمح للالتحاق بسلك الكهنوت، وكان يتفاخر علنًا بأنه يكره النساء، قائلاً إن أمنا حواء هي التي أخرجت آدم من الجنة، وأن جميع مشاكل الأسر سببها المرأة: الزوجة، الحماة، الأخت، أو الابنة ".

ورغم هذا العداء الظاهر للنساء، كان أنطونيو يتمتع بشخصية جاذبة، وكان يصطحب بين الحين والآخر فتاة من فتيات المصنع في جنح الظلام. وفي أحد الأيام، أعلن أنه سيتزوج من فتاة تدعى "مارينا كايرا"، وهي أجمل فتاة في القرية ، جمال لا يوصف.

وأثار هذا الإعلان دهشة الجميع و استغرابهم، فقد كانت مارينا، كما يقول جونو، صديق أنطونيو، تُعانقه وتداعبه في أحراش السيرتو.

وتتابع القصة بتفاصيل عن العلاقة الزوجية بين أنطونيو ومارينا، وكيف أن الخلافات بدأت تظهر بينهما سريعًا بسبب ممارسات أنطونيو الغريبة واهتمامه الزائد بالأديان وعلاقاته المشبوهة. كما بدأت الشائعات تنتشر عن علاقات خفية بين مارينا وبعض شبان المصنع ، و شبان القرية .

في النهاية، نجد أن الخلافات بين الزوجين تتصاعد، ويظهر أن مارينا تطمح إلى حياة أفضل في ريو دي جانيرو أو ساو باولو، وهو ما يرفضه أنطونيو رفضًا قاطعًا. وتمر الأيام، ويكتشف أن مارينا قد تركته وذهبت في رحلة نحو الجنوب، تاركة له رسالة تنبئه بأنها لا تكره أحدًا مثلما تكره وجهه القبيح .

وبذلك، تستمر الأحداث في السير نحو الانفجار القادم، حيث يظل أنطونيو مشدودًا بين طموحات زوجته وشياطين الماضي التي تلاحقه.

## الوجه الآخر لأنطونيو كونسيليرو

كان أنطونيو منديس، المعروف بـ"الكونسيليرو"، مجرد عامل بسيط في مصنع للملح بقرية "ريسيفي" في شمال شرق البرازيل. وعلى الرغم من فقره وقبحه، فقد تزوج من أجمل فتاة في المنطقة، إلا أنها هجرته بعد أشهر قليلة من الزواج وهربت إلى الجنوب.

يقول الصحفي الشاب اللامع لوسيان:

"تلك هي العقدة التي حولت الفتى الوديع إلى سفاحٍ أثيم لا يرحم. وسأدع الكابتن ماسيل، الذي عايش تلك الأحداث كما عايشتها، يروي لكم القصة".

**رواية الكابتن ماسيل:**

كانت الزوجة الشابة قد أقامت علاقة غير شرعية مع أحد كبار موظفي بلدية ريو دي جانيرو، أثناء حملة تفقدية قادها الأخير إلى المنطقة الشمالية الشرقية. وحين علم أنطونيو بالأمر، ظن أن زوجته هربت إلى ريو دي جانيرو. فحمل متاعه البسيط على كتفه، كما يفعل الفقراء، ورحل إلى الجنوب بحثًا عنها.

وقد عثر عليها هناك.

تلك هي المرحلة الغامضة في حياة أنطونيو منديس. الشائعات عنها كثيرة:

" قيل إنه استدرج زوجته "مارينا كايرا"، وقتلها وألقى بجثتها في البحر، وقيل أيضا إنه دخل "غابة ماتو جروسو" الخطرة وعاش بين المتوحشين، وقيل كذلك إنه عاش في كهف مع امرأة مختلة مثله ثم قتلها ودفنها. وبعد

خمس سنوات من غيابه، عاد أنطونيو منديس ، وقد تغيرت هيئته تمامًا.

صار أعرض جسدًا، أطلق لحيته حتى وسطه، وترك شعره الطويل يتدلى على ظهره. ارتدى قميصًا أصفر وسروالًا رماديًا سميكًا لا يغيره صيفًا أو شتاء. عاد حاملًا أسطورة "دون سبياستيان"، يصيح:

"اتبعوني كي نحرر دون سبياستيان من صخرة بدرابونيتا، ليعيد الرخاء إلى البرازيل".

وتبعه الناس، كما حدث في فتنة سنيا المخبولة.

قال الكابتن ماسيل:

"في تلك المنطقة التي يسودها الجهل والفقر والمرض ، لا مدارس لا مستوصفات ، لم يتخلّف أحد عن النداء. صار أتباعه بالآلاف، وأشدهم تعصبًا كان صديقه جوانو".

عارضه بعض العقلاء في البداية، لكنهم انضموا إليه حين غيّر أسلوب حركته وأهدافها. فقد بات يبشّر بدين جديد، بعدما يئس الناس من عدل الكنيسة الكاثوليكية، وانتشر فساد القساوسة والجهلاء. كان يخاطب الناس بأسلوب مسرحي حافل بالشعوذة والتهريج :

"ألا تزالون ترجون خيرًا من القساوسة؟ ألا تتوقعون أن تتدخل الحكومة المركزية؟ هل تقبلون بحرية العبادة لغير الكاثوليك؟"

ويصيح أنصاره:

"لنذهب إلى العاصمة، ونقدم التماسًا مكتوبا إلى رئيس الجمهورية! كن على رأس المسيرة، أيها الكونسيليرو"!

فيرد:

"أنا أتكلم باسم دون سبياستيان، هل توافقون على قانون الزواج المدني؟"

ويصرخ الناس:

"يسقط قانون الكلاب"!

ويقصد به قانونًا يتيح للمرأة مغادرة البيت دون إذن زوجها، والعمل دون موافقته، ويرفض الاعتراف بالزواج الديني، ولا يبيح للزوج قتل زوجته الخائنة.

قانون مستورد يناقض حياة أهل القرى ، فالزوج يعمل ، و الزوجة حبيسة البيت ، و إذا أخطأت المرأة و لو خطأ بسيط فإن من حق الزوج ان يضربها ، أما إن كانت الخيانة شنيعة ، فمن حق الزوج أن يقتلها .

قال الكابتن ماسيل:

"يبدو أن جرح خيانة زوجته لم يندمل. هذا واضح من حملته العنيفة ضد المرأة".

والمثير للدهشة أن نساءً كثيرات تبعنه في هوس ديني، ورضين بعقوبات الجلد بسرور غريب.

"اجلدوا المرأة التي لا تطيع زوجها، اقتلوها إن خانت عهد الزوجية!"، هكذا كان يأمر.

سألته:

"وهل عادوا لقتل الأطفال وغسل صخرة بدرابونيتا بدمائهم؟"

قال:

"لا، وهذا هو ما كسب له تعاطف الناس. لكنه تحدى الحكومة المركزية وأعلن:

"سنهاجر فرارًا من اضطهاد حكومة الجمهورية! اتبعوني إلى أرض الطهر. أنا خليفة دون سبياستيان"!

وتبعه الناس كالعادة ألوفا ، وانتقلوا جنوبًا. بايعته قرى جديدة في الطريق. وكان الجيش مشغولًا بخلافات

سياسية داخلية وخارجية. فواصلوا مسيرتهم، رغم الجوع والعطش، في هوس عقائدي غريب.

وحين وصلوا إلى قرية مهجورة شمال "باهيا"، أسس أنطونيو مجتمعًا جديدًا، وأحاطه بأسوار عالية، ووضع قوانين صارمة:

"لا رحمة للزناة! المرأة تُحرَق، والرجل يُنفى"!

سألته:

"ولمَ هذه التفرقة؟"

قال:

"ما أدهشني هو خضوع النساء لهذه القوانين. فأدركت وجوب القضاء على هذه الحركة".

ذهب الكابتن ماسيل إلى وزير الحربية الذي استهان بالأمر. فأرسل حملة صغيرة قضى عليها أنطونيو بسهولة. أقال الرئيس الوزير، وعيّن آخرًا، ثم أطلق حملة كبيرة بقيادة جنرال مخضرم، مدعومًا بأحدث الأسلحة.

لكن، كما قال لوسيان:

"كان الرئيس يجهل طبيعة الهوس الديني الذي يسيطر على الأتباع. كانوا يؤمنون أن أنطونيو هو دون سبياستيان، وأوامره لا تُعصى".

وعاد الناس لتحصين القرية، واستمروا في القتال رغم الجوع. وبعد شهر كامل، اقتحم الجيش القرية، ووجدوا الخنادق مليئة بجثث النساء والأطفال.

قال الرئيس في غضب:

"اللعين! استخدم النساء والأطفال كدروع بشرية! سأحرقه حيًا"!

لكن أنطونيو لم يُعثَر عليه. قال صديقه جوانو:

"وجدناه في فراشه، بلا خدش. اختفى، لقد عاد إلى صخرته. أما نحن فسنحارب حتى النهاية".

وانتهت المعركة يوم 19 من عام 1898. لم يبقَ حيًا سوى أربعة: رجلان، طفل، وامرأة عجوز. أُخرجوا من أنقاض قرية "كانودوس"، وأُحرقت القرية بالكامل، لتُمحى من الخريطة.

سألت الكابتن ماسيل:

"هل تتوقع ظهور كونسيليرو آخر؟"

فأجاب:

"كل شيء ممكن، ما دام الجهل، والفقر، والمرض هي ركائز الخرافة. و أخطرها، خرافة دون سبياستيان".

و استطرد في لهجة حزينة :

ليت الحكومة تقوم بواجبها ، فتنشأ المدارس ، و تنشأ المستوصفات ، و تصلح الأراضي ، و تعين رحبان قساوة متعلمون .